الباب الحادى والثلاثون

فى ذكر الأدب ومكانه من التصوّف

روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أدّبنى ربّى فأحسن تأديبى».

فالأدب: تهذيب الظاهر والباطن. فإذا تهذّب ظاهر العبد وباطنه صار صوفيًا أديبًا.

وإنما سميت المأدبة مأدبة لاجتماعها على أشياء.

ولا يتكامل الأدب فى العبد إلاّ بتكامل مكارم الأخلاق، ومكارم الأخلاق مجموعها من تحسين الخلق؛ فالخَلقْ صورة الإنسان والخُلق معناه.

قال بعضهم: الخُلق لا سبيل إلى تغييره كـالخَلق، وقـد ورد: «فـرغ ربكـم مـن الخلـق والخلق والرزق والأجل».

وقد قال تعالى: ﴿لاَ تبْدِيلَ لِخَلْقِ الله﴾ والأصح أن تبديل الأخلاق ممكن مقدور عليه، بخلاف الخَلق.

وقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حسِّنوا أخلاقكـم» وذلـك أن الله تعـالى خلـق الإنسان وهيّأه لقبول الصلاح. والفساد وجعله أهلاً للأدب ومكارم الأخلاق، ووجود الأهلية فيه كوجود النار فى الزناد ووجود النخل فى النوى، ثم إن الله تعالى بقدرته ألهم الإنسان ومكّنه من إصلاحه بالتربية، إلى أن يصير النوى نخلاً، والزناد بالعلاج حتى تخرج منـه نار، وكما جعل فى نفس الإنسان صلاحية الخير جعل فيها صلاحية الشر حال الإصلاح والإفسـاد، فقـال سـبحانه وتعـالى: ﴿وَنَفْس وَمَـا سَـوّاهَا فَأَلْهمَـهَا فُجُورَهَـا وَتَقْوَاهَـا﴾[1] فتسويتها: صلاحيتها للشيئين جميعًا، ثم قال عز وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاهَا وَقَدْ خَـابَ مَنْ دَسّاهَا﴾[2] فإذا تزكّت النفس تدبرت بالعقل، واستقامت أحوالهـا الظـاهرة والباطنـة، وتهذبت الأخلاق وتكونت الآداب.

فالأدب: استخراج ما فى القوة إلى الفعل.

وهذا يكون لمن ركّبت السجية الصالحة فيه.

والسجية فعل الحق، لا قدرة للبشر على تكوينها، كتكوّن النـار فـى الزنـاد؟ إذ هـو فعل الله المحض. واستخراجه بكسب الآدمى، فهكذا الآداب منبعها السجايا الصالحـة

---

(١) الآيات ٧، ٨، ٩، ١٠ من سورة الشمس.

(٢) سورة الشمس الآيتى ٩، ١٠.

والمنح الإلهية ولّما هيّأ الله تعالى بواطن الصوفية بتكميل السجايا فيها توصلوا، بحسن الممارسة والرياضة، إلى استخراج ما فى النفوس وهو مركوز بخلق الله تعالى إلى الفعل، فصاروا مؤدبين مهذَّبين.

والآداب تقع فى حق بعض الأشخاص من غير زيادة ممارسة ورياضة؛ لقوّة ما أودع الله تعالى فى غرائزهم، كما قال رسول الله ﷺ: «أدبنى ربّى فأحسن تأديبى»[1].

وفى بعض الناس من يحتاج إلى طول الممارسة؛ لنقصان قوى أصولها فى الغريزة.

فلهذا احتاج المريدون إلى صحبة المشايخ؟ لتكون الصحبة والتعلّم عونًا على استخراج ما فى الطبيعة إلى الفعل، قال الله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[2] قال ابن عباس، رضى الله عنهما: فقّهوهم، وأدّبوهم.

وفى لفظ آخر قال رسول الله ﷺ: «أدبنى ربّى فأحسن تأديبى ثم أمرنى بمكارم الأخلاق، فقال ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ﴾[3].

قال يوسف بن حسين: بالأدب يُفهم العلم، وبالعلم يصلح العمل، وبالعمل تنال الحمكة، وبالحكمة يقام الزهد، وبالزهد تترك الدنيا، وبترك الدنيا يرغب فى الآخرة، وبالرغبة فى الآخرة تنال الرتبة عند الله تعالى.

قيل: لّما أراد أبو حفص العراقَ جاء إليه الجنيد، فرأى أصحاب أبى حفص وقوفًا على رأسه يأتمرون لأمره لا يخطئ أحد منهم، فقال: يا أبا حفص، أدّبت أصحابك أدب الملوك؟ فقال: لا يا أبا القاسم، ولكن حسن الأدب فى الظاهر عنوان الأدب فى الباطن.

قال أبو الحسين النورىّ[4]: ليس لله فى عبده مقام، ولا حال، ولا معرفة تسقط معها آداب الشريعة، وآداب الشريعة حلية الظاهر، والله تعالى لا يبيح تعطيل الجوارح من التحلّى بمحاسن الآداب.

قال عبد الله بن المبارك: أدب الخدمة أعزّ من الخدمة.

---

(١). متفق عليه.

(٢) آية رقم ٦ من سورة التحريم.

(٣) آية رقم ١٩٩ من سورة الأعراف.

(٤) هو: أبو الحسين أحمد بن محمد النورى، بغدادى المولد والمنشأ، ومن أقران الجنيد. قال الخطيب البغدادى: هو أعلم العراقيين بمطائف القوم. توفى سنة ٢٩٥هـ.

حكى عن أبى عبيد القاسم بن سلام قال: دخلت مكة فكنت ربما أقعد بحذاء الكعبة، وربما كنت أستلقى وأمدُّ رجلى، فجاءتنى عائشة المكية فقالت لى: يا أبا عبيد، يقال إنّك من أهل العلم، اقبل منّى كلمة: لا تجالسه إلاّ بأدب، وإلاّ فيمحى اسمك من ديوان القرب. قال أبو عبيد: وكانت من العارفات.

وقال ابن عطاء: النفس مجبولة على سوء الأدب، والعبد مأمور بملازمة الأدب، والنفس تجرى بطباعها فى ميدان المخالفة، والعبد يردّها بجهده إلى حسن المطالبة؟ فمن أعرض عن الجهد فقد أطلق عنان النفس، وغفل عن الرعاية، ومهما أعانها فهو شريكها.

وقال الجنيد: من أعان نفسه على هواها فقد أشرك فى قتل نفسه؛ لأن العبودية ملازمة الأدب، والطغيان سوء الأدب.

أخبرنا الشيخ العالم ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال: أخبرنا أبو الفتح الهروى، قال: أخبرنا أبو النصر التريقى، قال: أخبرنا أبو محمد الجراحى قال: أخبرنا أبو العباس المحبوبى قال: أخبرنا أبو عيسى الترمذى قال: حدثنا قتيبة قال: حدثنا يحيى بن يعلى، عن ناصح، عن سماك، عن جابر بن سمرة قال: قالَ رسول الله ﷺ: «لأن يؤدب الرجل ولده خير له من أن يتصدّق بصاع».

وروى أيضًا أنه قال عليه الصلاة والسلام: «ما نَحَل والدٌ ولدًا من نحلة أفضل من أدب حسن».

وروت عائشة رضى الله تعالى عنها، عن رسول الله ﷺ: قال: «حقُّ الولد على الوالد: أن يحسن اسمه. ويحسن موضعه، ويحسن أدبه»[1].

وقال أبو علىّ الدّقاق: العبد يصل بطاعته إلى الجنّة، وبأدبه فى طاعته إلى الله تعالى.

قال أبو القاسم القشيرى، رحمه الله: «وكان الأستاذ أبو علىّ لا يستند إلى شىء، فكان يومًا فى مجمع، فأردت أن أضع وسادةً خلف ظهره؟ لأنّى رأيته غير مستند، فتنحّى عن الوسادة قليلاً، فتوهمت أنه توفّى الوسادة؛ لأنه لم يكن عليها خرقة أو سجادة، فقال: لا أريد الاستناد، فتأملت بعد ذلك، فعلمت أنه لا يستند إلى شىء أيدًا.

وقال الجلال البصرى: التوحيد يوجب الإيمان؟ فمن لا إيمان له لا توحيد له. والإيمان يوجب الشريعة. فمن لا شريعة له لا إيمان له ولا توحيد له. والشريعة توجب الأدب فمن لا أدب له لا شريعة له ولا إيمان له ولا توحيد له.

---

(١) متفق عليه.

وقال بعضهم: الزم الأدب ظاهرًا وباطنًا؟ فما أساء أحد الأدب ظاهرًا إلاّ عوقب ظاهرًا، وما أساء أحد الأدب باطنًا إلاّ عوقب باطنًا.

قال بعضهم — هو غلام الدقاق — : «نظرت إلى غلام أمرد، فنظر إلىّ الدقاق وأنا أنظر إليه، فقال: لتجدنَّ غبَّها ولو بعد سنين!! قال: فوجدتُ غِبَّها بعد عشرين سنة أن أنسيت القرآن.

وقال سرىّ: صلّيتُ وردى ليلةً من الليالى، ومددتُ رجلى فى المحراب، فنوديت: يا سرى، هكذا تُجالس الملوك!!. فضمت رجلىّ، ثم قلت: وعزّتك لا مددتُ رجلى أبدًا. وقال الجنيد: فبقى ستين سنة ما مدّ رجله ليلاً ولا نهارًا.

وقال عبد الله بن المبارك: من تهاون بالأدب عوقب بحرمان السُنَن، ومن تهاون بالسنن عوقب بحرمان الفرائض، ومن تهاون بالفرائض عوقب بحرمان المعرفة.

وسئل السرى عن مسألة فى الصبر، فجعل يتكلم فيها، فدبّ على رجله عقرب، فجعلت تضربه بإبرتها.. فقيل له: ألاَ تدفعها عن نفسك؟ قال: أستحى من الله أن أتكلّم فى حال ثم أخالف ما أعلم فيه.

وقيل: من أدب رسول الله ﷺ أنه قال: «زُويت لى الأرض فأريتُ مشارقها ومغاربها»[1] ولم يقل: «رأيت».

وقال أنس بن مالك: الأدب فى العمل علامة قبول العمل.

وقال ابن عطاء: الأدب: الوقوف مع المستحسنات. قيل: ما معناه؟

قال: أن تعامل الله سرًا وعلنًا بالأدب، فإذا كنت كذلك كنت أديبًا وإن كنت أعجميا؛ ثم أنشد:

إذا نطقت جاءت بكل مليحة وإن سكتت جاءت بكل مليح

وقال الجريرى: منذ عشرين سنة ما مددت رجل فى الخلوة؛ فإنّ حسن الأدب مع الله أحسن وأولى.

وقال أبو على: ترك الأدب موجب للطرد؛ فمن أساء الأدب على البساط ردّ إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب ردّ إلى سياسة الدواب.

---

(١) رواه النسائى والترمذى.